

تقديم:

تعتبر الرواية في فترة التسعينيات من القرن الماضي- بحق- تجاوزا لذلك المعطى الكلاسيكي الذي كان سائدا في ثنايا الروايات العربية، فمن خلال معالجتها للواقع بأركانه الأربعة، استطاعت أن تعكس صوره وأبعاده، وتخرق هذا الممنوع من الأحكام الأيديولوجية والتصرفات السلطوية، فكان لها ذلك التآلق في أوساط الروايات المعاصرة على الرغم من ندرة عددها وضآلة الكتابات السردية حول ما يسمى "بأدب المحنة" في الخطاب السردى الجزائري.

إنّ الرواية الجزائرية هي بنت الرواية العربية "تعيش نبوءة و خوفا، أملا و قلقا، مردهما حس الفنان المخلص بمحنة التدمير والإعياء والاختناق التي يمر بها الإنسان العربي جراء القهر والاستلاب و غياب الحرية"¹.

لقد جاءت الرواية بنبرة جديدة لما منحت دور البطولة للشعب المضطهد، تكتب واقعه اللامعقول بطرحها الوجودي لمأساته، مأساة الغريب في أرضه، المقهور في بيته، لهذا السبب كانت الرواية "مرشحة لكي تكون أكثر الأجناس تعبيراً عن الإنسان العربي، بكل همومه المتباينة وطموحاته وآماله وآلامه و مشكلاته، ففي عصور المواجهة والحركة والطموح والقلق والصراع والأمل، يصبح الإنسان لولبا مملوءا بمختلف الآمال والهواجس و المخاوف أمام تحديات عديدة تبتدئ بالذات و تنتهي بالحكومات والقوى المضادة بكل من يتمثل به الميل للاستلاب والقهر والانتهاك و بالتأكيد لا من جنس أدبي أكثر تمثيلا لكل هذه المحن و المخاوف والآمال و التطلعات من الرواية"².

وبعيدا عن التعقيم والإيهام، جاءت الرواية لتكشف جملة من الحقائق التي يأبى العقل حتى تخيلها، و ما رواية "المدينة الندية" لرابح سبع إلا واحدة من روايات عديدة، نود قراءتها قصد إثارة لعصب السؤال في الواقع الراهن وبحث في جدلية المتناقضات الراضية لأحكام المنطق و المقبلة على واقعية اللامعقول و التي نعني بها تشظي العقل وتشتته.

فاللامعقول هو تجاوز للمعقول و إشارة للتفكير في "الغرائبي" الخاص بمستوى الخيال، و هنا تتداخل المفاهيم حول محاولة لتحديد و إجلاء ملابسات الواقع في علاقته باللامعقول، ليأتي الإشكال كالاتي: كيف يمكن أن يكون واقع المجتمع في مرجعيته واقعا (حقيقيا) و هو الذي يأبى هذا الواقع و يتعداه إلى ما وراء الواقعي؟ بعبارة أخرى: هل يمكن أن يكون المرجع الثقافي متخيلا في مقابل الكتابة الروائية التي عوض أن تكون متخيلة، نجدها واقعية؟

نرد على هذا الإشكال باعتبار المعطى الأول حقيقيا و هو وارده الآخر يتجه باتجاه فعل الإرادة التي يسعى الروائي لتحقيقها على شكل قيمة في موضوع السرد "المعقود حول المعاناة العامة و كشف

حقيقتها: الحقيقة التي لها معنى الإعاقاة، معنى الهلاك و السقوط في الموت و المعنى الذي يجب أن يهدم ليولد نقيضه"³.

فواقعية اللامعقول في "المدينة الندية" هي خلق لرؤية جديدة، أرادها الروائي أن تكون في شكل بؤر متباينة، تهيمن على السياق النصي فترفع الستار عن عالم مليء بالمتناقضات، من حيث الزمان و المكان، الشخصيات بين ثنائية الأنا و الآخر و أخيرا ازدواجيات للنفي والتضاد، ليكون المفرد من هذا الواقع اللامعقول هو عقد لحزمة من التساؤلات البسيطة في طرحها و العويصة في حلها.

المكان و الزمان في المدينة الندية:

لا وجود لمكان واحد، إنما هناك أمكنة كثيرة و متعددة، يؤطرها فضاء "المدينة"، أرادها المؤلف أن تكون بمثابة التعبير الصادق و الصريح لمفهوم "الندي". فالشوارع كما يقول: "بكماء، لا تتكلم و إن تكلمت فكلامها مليء بالتساؤلات و اللعنات"⁴، هو إذن إفصاح " لحقيقة التردى الاجتماعي، فظائعيته البالغة حد السقوط في جحيم اليأس، تجلى في الواقع ميلا إلى النفي و التهديم"⁵.

هي المدينة بشوارعها و أزقتها "جحيم يتقاسمه الأهالي، لأن الرصيف أصبح رعباً"⁶ يستحوذ النفوس و يقبض أجسادها لهول الوقائع و عظم الأحداث اليومية بها.

لماذا المدينة الندية؟ لأن نداها من ندى المقبرة، حتى أنها تحمل مثلها رائحة الموتى والجثث الباردة، يخترق الخوف أبوابها الحديدية و يجتاح أرجاءها، يزرع الرعب و القلق والشك لدى الجميع، لذلك أنت المدينة كمعادل موضوعي للمقبرة.

عامل المكان هو "الملعب" الذي يحتدم بعامل الزمان، إذ في ظرف أسبوع حدث التغيير، فبعد أن كان يرمز للحياة السعيدة مردها نشوة الاحتفال بعيد الاستقلال، أمسى يرمز إلى الموت من خلال الاجتماع لأجل الإجماع على القتل و التدمير⁷.

صورة مكان آخر هي منطقة "البشير" بضواحي المدينة، عبارة عن دشرة للفوضى وللضياع، للمباني القصديرية التي لا تنبئ بالأمن أو الاستقرار⁸. و مكان للجامعة، حيث أصبحت مساحة للإدارة لا للمعرفة، يطغى جانب البحث المادي على جانب البحث العلمي، و تتداخل المفاهيم و التصورات بين ما هو إنساني و ما هو انتهازي، يلجأ الروائي فيها إلى التلميح "لكي يمنح الرواية تماسكا بعدما بدت الأصوات المختلفة، تكرر قضية واحدة من وجهات نظر مختلفة، فالتلميح يضع القارئ أمام حساسية مفردة و قلق ما، و توتر ينقله الفعل وردوده"⁹.

ويأتي في الأخير مكان السوق، ليزيد من حدة الأمة الجزائرية و مسبباتها الاجتماعية والاقتصادية و السياسية والثقافية...للتفاعل فيما بينها بهذا المكان وقت انفجار "القنبلة" وتذوب الهوية الجزائرية و تتلاشى في غمرة من اليأس و القنوط، في عجز أمام التغيرات الجديدة من "تعدد المشاكل و المحن و تنوع مواقع الرؤية و صعوبة فرز الحقيقة"¹⁰.

هي تداعيات مكانية لفضاء ضيق هو فضاء المدينة و الواقع في فضاء واسع هو الوطن "الجزائر" المقابل لفضاء أوسع هو "الاغتراب" بأوربا. "نحن إذن إزاء دوائر صغيرة صغيرة تنتظم مع بعضها البعض في توازن و توازن دقيقين في إطار الدائرة الكبرى (العالم). فهناك دائرة الموجود والمفقود أو الحاضر والغائب و الموجود مفقود لأنه ضياع في ضياع، والمفقود موجود و غير موجود في آن واحد، فهو موجود في كيان الذات و في مظاهره الحسية الباقية و لكنه يتأبى على الواقع، بل يعف أن ينصهر فيه"¹¹.

فهناك دائرة فوضى الواقع و عفنه إلى جانب صدى الماضي من خلال الاغتراب وهناك دائرة الزمن الحاضر الذي يسعى "عياد" للهروب منه، لكن دونما جدوى لأنه يترصص به و يطارده و الموت له بالمرصاد.

الشخصيات في رواية المدينة الندية:

تشكل شخصية عياد الأستاذ الجامعي النزيه و الشاعر، محور الرواية لأنها تجد نفسها في عتمة هذه المدينة مذهولة و مذعورة، تتألم و تتأمل، تتوجع و تبسم، مأسها كثيرة أحلامها بسيطة. يحلم عياد "بكأس أمل، بكأس نبذ لأجل لذة السكر ولذة اللذة هي النسيان، نسيان الواقع المر الذي لا حلم، لا أمل و لا حياة فيه"¹²، حتى الحلم القريب أصبح بعيد المنال، حلم بالأصدقاء، مجرد تخيلهم و مساءلتهم.

شخصية عياد تعيش لأجل ثلاثة مقومات بارزة في الرواية هي: الوطن، الشعر والحبيبة الزوجة "زهرة"، هي نقوش منحوتة على جسد مرهق مقهور بكتلات من الهواجس اليومية "فخروج بسرعة، بأيدي مبللة، يصطك القلب كما تصطك الأسنان، و عيون كالمدرور، الخروج بعلامة على الجبين، حاملا الرفض، متسائلا: ما وظيفة جسد مسعف، جسد دون وعود هو جسد رهينة"¹³.

أما عن شخصية "زهرة" فهي صورة عن المرأة الجزائرية الطموحة و الواعية، الثائرة حينما تقول: "أحسن طريقة لارتداء الحجاب-القناع- هي نزع-رفعه"¹⁴. هي صورة لتلك الطالبة و كل النساء الحاضرات في جنازة عياد، حضور يتأكد برمز الأم الثكلى و هي الجزائر، كما يقول: "حضور مليء بالألوان والأحزان"¹⁵.

لتلهم شخصية الآخر "رجال الظلام" بدينه الجديد المنافي والمغاير للدين "الأصل"، تمتزج الأدوار وتتواشج في ربوع أرضية مهمة، حالكة الظلمة، تعبت في عالم من المتناقضات وتدور في جدلية من المفارقات، ليبدو هذا العالم "في بعض سماته دون معنى أو معقولية، الأمر الذي يدفع إلى القلق والتوتر والإحباط والحس الكبير بالألم والشقاء و الوحدة جراء عدم القدرة على سبر أغوار هذه الغوامض والتحكم بها"¹⁶.

تتمثل هذه في جملة من الثنائيات الغريبة التي ربطت المنطق باللامنطق، المستحيل بالممكن، الإشاعة بالإبادة والمعقول باللامعقول في سرد أحداث الرواية، ولربما كانت الابتسامات التي ينثرها المؤلف بمهارة بين الصفحات مجرد تعويض لنفسية تميل بطبعها إلى الحزن ولكنها تميل في الوقت نفسه إلى تغليف هذا الحزن بما يحجبه عن الآخرين بدافع من الكبرياء أو الرغبة الدفينة في الحيلولة دون إيلاهمهم.

لكنه، هو واقع أزمة المتناقضات، حين تستوي الحياة والموت في مرتبة واحدة، فهو لما يذكر استعمال الرخام في المباني الفخمة بهذه الحياة، يشبع نصه بسميائية مطلقة، المقصود من ورائها تلك الدلالات الاجتماعية والاقتصادية الموجودة أيضا بعالم الموتى في المقابر¹⁷.

ثنائيات أخرى تميز عالم المتناقضات في هذه الرواية كالأمل والألم، نجدها في نبذة التفاؤل التي اخترقت مسار التشاؤم، أتت لتكتسح أرجاء الصدور الموجعة وهو تأكيد صريح بالاستشهاد، حين "تعلت أصوات النسوة بزغاريد، تصم الأذان وسط الصمت المعلن بالموكب الجنائزي"¹⁸.

وفي سويداء هذا العالم -عالم المدينة- تبرز خصوصية هذا الآخر في اعتماده اللون الأسود مرجعا للتعددية: "فكلما كثر العدد، كثرت الظلمة، وكلما زادت حلكتها اتساعا، اقترب النصر"¹⁹. "فالظلمة هنا عودة دلالية وإن بدت فجأة أو غير طاهرة إلى الذين يدعون بأمور الدين معرفة وإدراكا"²⁰.

ومرد الفجاجة واللاطهارة، تلك القساوة التي تحملها شخصيات بشعة وقذرة، هي شخصيات مختلفة ذات مهن متباينة، تشترك في صفة "الظلمة" ولا تفرق بين المثقف والجاهل، الغني والذكي، المنافق والمخلص²¹، لها برنامج خاص تعمل على إنجازه، يتمثل في تشتيت النور إلى دقائق صغيرة، "هي إرادة ضد النور"²²، سواد العقول والضمائر ببياض الثياب والعمائم وما يجمع بينهما هو اللون الرمادي، كالغبار والغيوم، الدخان والضباب.... وكل ما هو مهمم وغامض مثل هذا الدين الجديد المنافي قطعاً للدين "الأصل"، لا يعترف حتى بهؤلاء الشيوخ العارفين بأمور الدين الحنيف، يزعم أن "مجتمع الرجال سراب"²³، لذلك يستحق كل من "يفكر أن يسحق في صمت أو أن يدفع غرامة مدى

الحياة، و لمن تاب فعله أن يدفع ضريبة على فعل الشك"²⁴. فالفكر والشك، ثنائية للتساؤل حول فلسفة الوجود و الفرق شاسع بين التفكير لأجل الصواب و التفكير لأجل الخطأ أو ارتكاب المعصية.

يرى هذا الدين الجديد أن "الإنتاج من السماء لا من الأرض"²⁵، يبيح السرقة والاعتصاب، القتل و الاحتجاب، ببساطة لقد تغير الواقع بفعل تغير في الوعي والإدراك، يجده عياد عبارة عن تغير مؤقت، لأن دوام الحال من المحال، "فالشباب سمته التحول- يساير الموضة- و التحول اختلاف ضد شيخوخة العقل بمعنى عجز العقل"²⁶... ويبقى بصيص الأمل يشع بشعاعه الخافت و الباهت حتى يذيب من حوله آلام شعب ضائع. "ومن الإنصاف أن نقول إنه رغم اللون الرمادي الذي يمتد إلى نهاية الأفق، فإن الرواية سعت لتجاوز هذا الواقع بالسؤال عن واقعها وهويتها... إن كل رواية - في سعيها لتأكيد الذات- طرحت قضاياها الخاصة بها، و هي قضايا كانت تصل في بعض الأحيان إلى المنتهى، و كانت محاولات البحث عن القضايا الدقيقة تمر بطريقتين يلتقيان و لا يفترقان أبدا... أحدهما طريق الدلالة و الآخر طريق المغامرة الفنية، أحدهما يبحث عن المعنى والآخر يبحث عن المبنى، وكنا في سعيهما يحاولان كشف مجاهل هذا العالم (الأخطابوتي) الرهيب"²⁷.

خاتمة:

هي إذن ظروف شاذة رافقت سنوات الأزمة بأشكالها، جعلت من الديمقراطية مسألة خطيرة الأهمية لدرجة أن حل الصمت محل حرية التعبير بها و أصبح لا يعترف بالرضى كدلالة رمزية و إنما كتعبير عن رؤية واضحة.

أقلام كثيرة أرادها كتاب جزائريون أمثال: ر. سبع، أ. الزاوي، ر. ميموني، ط. جاعوت، و. الأعرج... أن تكون شاهدة على تلك الأزمة، حيث راحوا يغوصون في مسبباتها باحثين بأنوفهم الحادة الشم عن رائحة المأساة لما تفرزه من محن... و أدب المحنة هو كما يسميه المشاركة بمصر إبان الثورة التحريرية "بأدب المأساة، أدب واقعي حتى النخاع"²⁸.

و تبقى النهاية مفتوحة على أكثر من احتمال، "و لتبقى على التصاق عميق و حميمي مع المرجع الحي مع المعيش و مع هذا الصوت المنسوج بتراب أرض الجزائر، بمياها رمز الحياة فيها، بأناسها المنتجين لخيراتهم، بهؤلاء الذين يودون حريتهم و فرحا عادلا بحياتهم"²⁹.

الهوامش:

*Rabeh Sbaa, La ville moite, Ed Dar elgharb, Oran, 2001

¹ محسن جاسم الموسوي، الرواية العربية النشأة والتحول، منشورات دارالآداب، ط2، بيروت، 1988، ص130.

²-المرجع نفسه، ص188.

- ³-يمنى العيد، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دارالآداب، ط1، بيروت 1998، ص101.
- ⁴ Rabeh Sbaa, La ville moite, p15.
- ⁵-يمنى العيد، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب ، ص96.
- ⁶ Rabeh Sbaa, La ville moite, p16.
- ⁷ ipid, p41.
- ⁸ ipid, p72.
- ⁹-محسن جاسم الموسوي، الرواية العربية النشأة والتحول، ص260.
- ¹⁰-نفسه، ص 214.
- ¹¹-نبيلة إبراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق، مكتبة غريب، القاهرة، س ؟، ص182.
- ¹² Rabeh Sbaa, La ville moite, p42.
- ¹³ ipid, p16.
- ¹⁴ Ipid, p33.
- ¹⁵ Ipid, p18.
- ¹⁶-محسن جاسم الموسوي، الرواية العربية النشأة والتحول، ص315.
- ¹⁷ Rabeh Sbaa, La ville moite, p39.
- ¹⁸ Ipid, p12.
- ¹⁹ Ipid, p28.
- ²⁰-محسن جاسم الموسوي، الرواية العربية النشأة والتحول ، ص256.
- ²¹ Rabeh Sbaa, La ville moite, p80.
- ²² Ipid, p27.
- ²³ Ipid, p39.
- ²⁴ Ipid, p39.
- ²⁵ Ipid, p38.
- ²⁶ Ipid, p29.
- ²⁷-مصطفى عبد الغني، قضايا الرواية العربية في نهاية القرن العشرين، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1999، ص11.
- ²⁸-غالي شكري، معنى المأساة في الرواية العربية، ج1، رحلة العذاب، منشورات دارالأفاق الجديدة، ط2، بيروت، 1980، ص30.
- ²⁹-يمنى العيد، فن الرواية العربية...، ص.ص: 106.107.